ناظر المدرســـة

للقصصي الروسي أنطوله تشيكوف

ترجمة الأستاذ محمد قطب

كان فيودور لوكيتش سيسوييف — ناظر المدرسة التابعة للمصنع الذي يديره كوليكين — كان يعد نفسه لحفلة العداء السنوية . ففي كل عام بعد انتهاء الامتحانات كان المدير يقيم حفلا يدعى إليه مفتش المدارس الأولية والممتحنون ويحضره كذلك مديرو المصنع .

وعلى الرغم من الصبغة الرسمية التي كانت لهذه الحفلات فإنها كانت دائما حافلة بالحياة والمرح ، وكان المدعوون يقضون فيها وقتاً طيباً ناسين ما بينهم من فروق . وكانوا يأكلون حتى يتملئوا ويشربون ويتحدثون حتى تبح أصواتهم ، ثم يتفرقون في المساء المتأخر وقد انطلقت حناجرهم بغناء صاخب تغطي حدته على ضجيج آلات المصنع !

وقد حضر سيسوييف من أمثال هذه الحفلات ثلاثة عشر إذ كانت قد مضت عليه ثلاث عشرة سنة في نظارة تلك المدرسة .

والآن — وهو يعد نفسه للرابع عشر — كان يحاول أن يبدو عليه البشر وأن تبدو حركاته مضبوطة بقدر الإمكان . وقد مرت عليه ساعة كاملة وهو ينظف بالفرشاة بذلته الجديدة السوداء وقضى ساعة أخرى أمام المرآة وهو يرتدي قميصاً على آخر طراز . ولكن دبوس الرقبة لم يشأ أن يدخل في عروته بسهولة فثار الرجل وصخب وراح يوجه أعنف اللوم إلى زوجته ويهددها بعظائم الأمور .

وكانت زوجته المسكينة قد أنهكت قواها وهي تدور حوله لتقضي له حوائجه وتساعده على إعداد نفسه . والحق أنه هو نفسه قد خارت قواه آخر الأمر حتى إنه — حين أحضر له حذاؤه اللامع من المطبخ — لم يستطع أن يلبسه واضطر أن يضطجع حينا من الوقت ويشرب كوبا من الماء فتهدت زوجته آسفة وقالت له « لقد غدوت ضعيفاً جداً ، وكان الأجدر بك ألا تذهب إلى هذا الغداء أبدا »

فقاطعها غاضباً « لا أريد نصائح من فضلك ! »

وقد كان ثائراً جداً ... وكانت نتيجة الامتحانات الأخيرة تثيره أكثر من كل شيء . ومع أن الامتحان قد انتهى بصورة باهرة وحصل تلاميذ الفرقة الأخيرة على شهادات وجوائز أيضاً ، وسر لهذه النتيجة رجال المصنع ورجال الحكومة سواء ، إلا أن ذلك كله لم يكن كافياً لحضرة الناظر ... فقد آذاه أن التلميذ بابكين الذي لم يكن يخطىء في الإملاء أبداً قد أخطأ ثلاث مرات ، وأن سرجييف كان شديد الاضطراب فلم يعرف حاصل ضرب ١٧ × ١٣ ، وأن المفتش وهو شاب غير مجرب — قد اختار للاملاء قطعة صعبة ، وأن لياپونوف — وهو ناظر مدرسة مجاورة — لم يسلك مسلك الزملاء حين اختاره المفتش لإملاء القطعة بل جعل يبتلع الحروف ابتلاعا ولم ينطق الكلمات كما هي مكتوبة !

وبعد أن ارتدى الرجل حذاءه بمساعدة زوجته ونظر إلى نفسه في المرآة مرة أخرى ، أمسك بعصاه المحببة وذهب إلى الحفل . وما إن وصل إلى منزل مدير المصنع حتى حدث له حادث بسيط فقد انتابته نوبة سعال عنيفة فجعل يهتز حتى طارت قبعته من فوق رأسه ووقعت عصاه من يده . وما إن سمع المفتش والمدرسون سعاله حتى هرعوا إليه فوجدوه جالساً على أسفل السلم سابحا في بحر من العرق ؛ فقال المفتش مستغرباً « أهذا أنت يا فيودور لوكيتش ؟ هل ... أتيت ؟ »

ولماذا لا أحضر ؟ »

« كان يجب أن تكون في المنزل يا صديقي العزيز فلست اليوم على ما يرام »

« إنني اليوم كما كنت بالأمس ... وإذا كان وجودي يضايقكم فأستطيع أن أرجع »

« أوه يا فيودور . لا تتحدث بهذه اللهجة ! تفضل بالدخول . إنك أنت الذى تشرف هذا الحفل لا نحن . وإننا لمسرورون برؤيتك ... مسرورون جداً ! »

وكان كل شيء فى الداخل قد أعد للحفل . وكانت فى حجرة المائدة المزينة بزهور (الجيرانيوم) مائدتان إحداهما — الكبيرة — للطعام ، والأخرى قد وضعت عليها طائفة من المشهيات . وكان ضوء النهار الحار يدخل بقدر من خلال الستائر المدلاة على النوافذ . وكانت مناظر الطبيعة المنقوشة على الستائر وأزهار الجيرانيوم وشرائح اللحم المرتبة فى الصحاف ... تعطى كلها جوا قطريا عاطفياً يلائم طبيعة صاحب المنزل وهو رجل ألمانى طيب القلب صغير الجرم تلمع عيناه بالبشر والمحبة يدعى « أدولف أندريتش برُونى » وكان يدور حول المائدة الصغيرة نشيطاً متحمساً يملأ الأكواب بالشراب ، ويملأ الصحاف بالطعام محاولا بكل طريقة أن يعبر عن صداقته وأن ينشر البشر على الجميع .

ولما أن رأى سيسوييف صاح « من ذا الذى أرى ؟ فيودور لوكيتش ! إن هذا بديع ! لقد أتيت برغم مرضك . أيها السادة دعونى أهنئكم بحضور فيودور لوكيتش ! »

وكان المدرسون فى ذلك الوقت قد اجتمعوا حول المائدة يأكلون المشهيات ، فقطب فيودور غاضباً لأن زملاءه قد بدأوا الطعام والشراب من غير أن ينتظروه . ولاحظ من بينهم لياپونوف الذى أملى الإملاء فى الامتحان فاتجه نحوه قائلا :

« لم يكن سلوكك مما يجدر بالزملاء ! أبداً ! فإن السادة الكرام لا يعلون هكذا ! »

فقال لياپونوف مقطباً « يالله ! أمازلت تفكر فى هذا الموضوع؟ أما سئمت الأخذ والرد فيه ؟ »

« بلى . مازلت أفكر فيه ! إن بابكين لم يكن يخطىء أبداً ! وأنا أعرف لماذا أمليت هكذا . لقد أردت أن تطوح بتلاميذى حتى تبدو مدرستك خيراً من مدرستى . إننى أعرف كل شيء !.. »

فصاح لياپونوف محتداً « لماذا تحاول أن تقيم معركة ؟ وأى شيء حدا بك إلى إغضابى ؟ »

فتدخل المفتش قائلا : « مهلا أيها السادة . هل يجوز أن تحتدوا على شيء بسيط كهذا ؟ ثلاثة أخطاء ... بدلا من واحد ... هل هذا يهم ؟ »

« نعم ؛ يهم . إن بابكين لم يكن يخطىء أبداً » .

فصاح لياپونوف « إنه لن يترك هذا الحديث أبدا . وهو يستغل ضعفه ومرضه فيسبب لنا التاعب جميعاً . إننى يا سيدى لن أعاملك كرجل مريض »

فاحتد سيسوييف قائلا : « دع مرضى جانباً . فليس لك به شأن . إنهم جميعاً يرددون فى وجهى المرض ... المرض ... المرض . كأننى محتاج إلى عطفك ! ثم خبرنى من أين جاءتك فكرة مرضى ؟ لقد كنت مريضاً قبل الامتحان . هذا صحيح ولكنى شفيت تماما ولم يبق من أثر المرض إلا شيء من الضعف »

وهنا قال مدرس الديانة الأب نيكولاى « لقد استعدت صحتك فاشكر ربك . وعليك أن تسر بهذا ولكنك سريع الغضب »

فقاطعه سيسوييف قائلا : « وأنت أيضاً ... ما كان أحسن صنيعك ! الأسئلة يجب أن تكون مستقيمة وواضحة ولكنك ظللت تسأل ألغازاً . ليس هذا ما يجب صنعه ! »

... وأخيراً أفلحوا فى تهدئته وأخذوه إلى المائدة . فظل يتردد فيما يشرب حتى قرر أن يشرب زجاجة كاملة من النبيذ ثم جذب إليه قطعة من فطير اللحم واستخرج ما حشيت به وقضم منه قضمة تخيل إليه أنها خالية من الملح فرش عليها الملح رشا وما لبث أن دفعها بعيداً إذ أصبحت الفطيرة غارقة فى الملح ...

وفى أثناء الغداء كان سيسوييف يجلس بين المفتش وبرونى .

وبدأ شرب الأنخاب حسب العادات المتبعة . فبدأ المفتش بقوله : « إننى أعتبر من واجبى أن اقترح عليكم شكر اللذين أخذا هذه المدرسة تحت كنفهما وإن كانا لم يحضرا هذا الاجتماع وأعنى بهما دانيال بتروفيتش و ... و ... و ... » فقال برونى يلقنه « وايفان بتروفتش »

« وايفان بتروفتش كوليكين اللذين لايألوان جهداً فى سبيل المدرسة وأقترح أن نشرب نخبهما ... »

فنهض برونى واقفاً كالمدوع وقال « أنا من جانبى أقترح أن نشرب نخب مفتش المدارس الأولية يافل جينادييفتش ناداروف !

فنهض المدعوون وأزاحوا كراسيهم وبدأوا يقرعون الأكواب

وكان النخب الثالث دائما من نصيب سيسوييف . وبهذه المناسبة نهض واقفاً ثم أخذ يلقى كلمته بعد أن اتخذ سماء الحد وتنحنح ... وقد بدأ كلمته بقوله إن الله لم يمن عليه بموهبة البلاغة وإنه لم يكن مستعداً للخطابة . ثم قال إنه فى خلال الأربعة عشر

عاماً التي قضاها ناظراً للمدرسة كانت هناك دسائس تحاك وأيد تلعب في الخفاء . بل وصل الأمر إلى حد كتابة تقارير سرية إلى السلطات التي بيدها الأمر . وقال إنه يعرف أعداءه الذين أدلوا بمعلوماتهم ضده ولكنه لن يذكر أسماءهم « حتى لا يفسد شهية أحد » وإنه رغم هذه الدسائس فإن مدرسة كوليكين كانت الأولى في المنطقة كلها « ليس من الناحية الخلقية فحسب بل من الناحية المادية أيضاً » .

ثم قال « في كل مكان آخر يتناول النظار رواتب تتراوح بين مائتي روبل وثلثمائة بينما أتناول أنا خمسمائة روبل ، وعلاوة على هذا فقد أعيد نقش منزلي وأثث على حساب المصنع وفي هذا العام غطيت الجدران بالورق ... »

وأخذ الناظر بعد ذلك يتحدث عن كرم المصنع في تزويد التلاميذ بأدوات الكتابة بالنسبة لمدارس الحكومة . وقال إن المدرسة مدينة في كل هذا لا إلى رؤساء المصنع الذين يقيمون على بعد ولا يزورونها إلا نادراً ، وإنما إلى الرجل الذي برغم كونه ألماني العنصر وعلى عقيدة لوثر فإنه روسي في دخيلة نفسه .

وتكلم سيسوييف طويلا .. وكان يقف بين الحين والحين ليلتقط نفسه ، وكان يتصنع البلاغة وحسن التأثير حتى أصبح كلامه مملا ممجوجا . وظل يردد الإشارة إلى أعدائه ويكرر نفسه ويسهل وعد أصابعه في الفضاء بإشارات غير مناسبة ؛ وأخيراً أنهكت قواه وتصبب العرق من كل بدنه وانخفض صوته حتى لكأنه يحدث نفسه وختم كلامه بجمل غير مترابطة « وعلى هذا فأنا أقترح شرب نخب بروني أعني أدولف أندريتش ، الذي هو بيننا ... وبصفة عامة ... تفهمون ما أقول .... »

وحينما انتهى من حديثه تنفس الجميع الصعداء كأنما رش أحدهم ماء باردا فصفا الجو .. ولم يكن قد بقي فيهم أحد على مرحه إلا بروني الذي شد على يد سيسوييف مصافحا وعاد وجهه يتضح بالبشر قائلا :

« أشكرك . وأشعر بسعادة عظيمة لأنك فهمتني ! إنني أرجو من كل قلبي أن يكون كل شيء حسناً ولكن يجب أن الاحظ أنك تضخم من أهميتي كثيراً . وإن نجاح المدرسة يرجع في الحقيقة إليك أنت ياصديقي . فلولاك أنت لما امتازت من أي مدرسة أخرى . وقد تظن أنني أجاملك ، ولكني لا أجامل أحداً . وإذا كنا ندفع لك خمسمائة روبل في السنة فلأننا نقدرك . أليس كذلك أيها السادة ؟ إن ما أقول صحيح . أليس كذلك ؟ إننا لم نكن لندفع لغيره مثل هذا الأجر . والواقع أن المدرسة العلمية السمعة هي شرف للمصنع ! »

فقال المفتش « لايسعني إلا أن أقول إن مدرستكم ممتازة . ولا تظنوا هذا رياء ، فإني لم أصادف مدرسة أخرى كهذه في حياتي . وبينما كنت أجلس لامتحان التلاميذ كان يغمرني الإعجاب .. تلاميذ مدهشون ! إن معلوماتهم جيدة وإنهم يجيبون إجابات مشرفة وفي الوقت ذاته فإنهم — على نحو ما — ممتازون . ثم هم صادقون في عواطفهم ، ويستطيع الإنسان أن يجزم بأنهم يحبونك بافيودور لوكيتش . إنك ناظر مدرسة لحما ودما . ولا بد أنك ولدت مدرساً . فإن فيك جميع المواهب ، من ميل فطري وتجريب طويل وحب لعملك . وإنه — بالاختصار — يدهشنا — بالنظر إلى ضعف صحتك — أن نرى فيك كل هذا النشاط والفهم والمواظبة والثقة بنفسك . لقد وصفك أحدهم في اجتماع مدرسي بأنك شاعر في عملك . أجل إنك لشاعر ! »

وهب الحاضرون على الطعام كرجل واحد يتحدثون عن مواهب سيسوييف وكأنما فتح خزان فسال طوفان من الكلمات الحماسية الصادقة . ونسي الجميع خطبة سيسوييف وحالته العصبية المنكرة ووجهه المعبر عن الحقد والكراهية . وجعلوا يتحدثون بحرية حتى أولئك المدرسون الجدد المستجدون الذين كانوا لايتحدثون إلى المفتشين إلا بقولهم « سعادتكم » . وكان من الجلي أن سيسوييف — في محيطه — رجل ذو حيثية .

ولما كان قد تعود النجاح وسماع المديح مدة الأربعة عشر عاما التي قضاها ناظر مدرسة فإنه كان يستمع بغير اهتمام إلى حماسة المعجبين ..

وكان بروني هو الذي شرب نخب هذا المديح بدلا من سيسوييف ، فقد انتبه لكل كلمة تقال وكان يصفق ويهلل وينحني متواضعاً كأنما كان كل هذا المديح خاصاً به هو لابناظر المدرسة . وكان يصيح قائلا : « مرحى .. مرحى ! هذا حق ! لقد عرفتم ما أقصد !.. بديع !! »

وكان ينظر إلى ناظر المدرسة كأنما يريد أن يشاركه فرحه . وأخيراً لم يطق صبراً ، فقفز واقفاً وغطى بصوته جميع أصواتهم وهو يصيح : « أيها السادة ! اسمحوا لي أن أتكلم ! هس ! أمام كل الذي تقولونه ليس لي إلا جواب واحد : وهو أن إدارة